

السُّبُحَاتُ

« قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ ،
« وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ،
« وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرضَوْنَهَا ،
« أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ،
« فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ،

(١)

دوى صوت الذير من أعلا الصفا ، فرددت صداه جنبات مكة . . واستقر الفزع فى دور كبرائها وعظائها . .
إنه صوت السماء . . يعلن رسالة الحق على لسان شريف قریش وسيدها ، ويؤذن بزوال عهد غاشم ، ذل فيه الإنسان لأخيه الإنسان . . وأمسث شجرة الحياة من خلاله ترتوى بدماء الضعفاء ، لتأكل ثمرتها حفنة الأغنياء . .

وصمد رسول الإنسانية أمام سيل الطغاة كالطود ، يدفع بحقيقة السماء باطل الأرض ، ويتحدى بمفرده تلك الرموس المتطاولة من قومه ، وقد شاخت على الكفر ، وجفت على الشرك وعبادة الأوثان . .

وطرق صوت الضمير باب آل عتبة بن ربيعة ، وأخذ يرن فى جنباتها بأحاديث الإنسانية الرفيعة ، التى صورتها نفس محمد بن عبد الله بلاء وفناء فى سبيل عقيدته ، لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتحرير العقول من أغلال الخضوع لأصنام لا تسمع ولا تبصر ، وإنبابة القلوب إلى من بيده ملكوت السموات والأرض . .

ولكن أنى لحساب الضمير فى آل عتبة أن يزيل عنهم قهر الجاهلية ، الذى امتدت جذوره من أعماق السنين إلى أعماق أصلابهم ، غورثهم الجاه العريض فى قومهم ، والمكانة المرموقة فى الذروة من عشيرتهم . . أنى لحساب الضمير أن يخلع عنهم رداء المجد الهائل ،

ليلبسهم ثوب المذلة ، مع أولئك الضعفاء من أتباع محمد ﷺ ، .. أنى لحساب الضمير أن يزيل عنهم ذلك الوهم القاتل ، حين يصبثون عن دين آبائهم ومن مضى من أسلافهم ، فيكونون أحدوثة الأحاديث على لسان العرب أجمعين . ! ؟

وتوقف عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد ، عن الإيمان بالله ورسوله .. أما أبو حذيفة بن عتبة فلم يستطع أن يرد نور الحق عن قلبه ، فأعلن إسلامه لله ، وإيمانه برسوله ، وأسلمت من ورائه زوجته الوفية ، سهلة بنت سهيل بن عمرو .

وصبت قريش جام غضبها على أبي حذيفة ، فهو الشريف القرشي الذى فتح أعظم ثغرة فى سياج الأسرة العربية ، لينفذ منها غيره من الشباب القوي ، إلى حيث الوقوف إلى جانب أعداء اللات والعزى .. ومناة الثالثة الأخرى !

ووقف عتبة بن ربيعة من ابنه موقف الأب الحانى أمام صوت الضمير ، لا يحاربه فى عقيدته ، ولكنه لا يملك أن يصد عنه الأذى والاضطهاد .. بينما دأب الإبن على دعوة أبيه إلى الإسلام طمعا فى حله ، وحرصا على هدايته .. وحباً فى أن يذوق حلاوة الإيمان كما ذاقها أصحاب محمد ﷺ .

...

وأسلم حمزة بن عبد المطلب .. فنزل نبأ إسلامه على قريش كالصاعقة ، فهو الشاب الذى لا يبالى بقوة الأقوياء ، ولا كثرة الأعداء ، حين يؤمن بحقيقة فيدافع عنها .. إنه الآن قد آمنه

بحقيقة الحقائق ، وإن نفسه قد صارت ملكا لها ، وروحه قد غدت فداء لنصرتها وإعلاء لوائها .

وخاف عتبة بن ربيعة أن يقع بقريش مالا يكون بالحسبان . . .
وقد رأى درر الشباب تنفرط من عقد الأسر القوية درة درة ،
بعد إسلام أبي حذيفة ، إيجار بوا - في صف محمد ﷺ - آباءهم ،
وسفروا معه أحلامهم وأوثانهم . . فانطلق إلى نادي القرشيين في
حجر الكعبة - ومحمد ﷺ جالس وحده في جانب آخر يعبد ربه -
ثم نادى فيهم ، وقال :

- يا معشر قريش ، ألا أقدم إلى محمد ، فأكله وأعرض عليه
أمورا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟
فأجابوه قائلين :

- بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكله . . .
وسار عتبة في وقاره إلى رسول الله ، ثم جلس إليه ، وأخذ
يتمعن في وجهه المشرق ، وكأنه لم يره من قبل . . ثم قال له :
- يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت ، من السطة في العشيرة ،
والمكاة في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، مزقت به
جماعتهم ، وسفرت به أحلامهم ، وعبت به آلتهم ودينهم ، وكفرت
به من مضى من آباءهم . . فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ،
لعلك تقبل منها بعضها . .

وتبسم رسول الله وقال :

- قل يا أبا الوليد . .

وتمعن عتبة في وجه رسول الله مرة أخرى ، وأطال النظر إليه ، وكأنه قد تحير فيما يريد أن يقوله . . ثم قال :

— يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . . وإن كنت إنما تريد به شرفا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك . . وإن كنت تريد به ملكا ، ما يمكننا علينا . . وإن كان الذي يأتيك ريبا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طالبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . . وصمت عتبة ، وأطرق برأسه إلى الأرض . . فقال له الرسول ﷺ :

— أتعذرت يا أبا الوليد ؟

فأجاب عتبة قائلا :

— نعم . .

فقال ﷺ :

— فاستمع مني . .

ثم تلا عليه الرسول سورة السجدة . . وحم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إنما عاملون . . ،

ومضى رسول الله في السورة ، وسجد عند السجدة ثم استأنف

التلاوة . . وعتبة من خلالها مسبل العينين ، سابع الفكر ، وقد ألقى
بيديه من خلفه ليعتمد عليهما في حلمه الجميل ، حتى إذا انتهى ﷺ
من السورة ، اعتدل الرجل من استلقائه ، وقد أخذ منه صوت الحق
كل حسه . . فلم يستطع أن ينطق بشيء . . ! !

وربت الرسول الأعظم على كتفه وهو يقول :

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك . . ! !

وقام عتبة يجر أقدامه جراً إلى ملاء قريش . . وقد رأوه مشتمت
الفكر ، موزع الفؤاد ، لا يستقيم وجهه على حال . . فقال بعضهم لبعض :

— نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به !

وجلس الرجل بينهم ، وقد احتل الإعياء كل جسده ، فقالوا له :

— ما ورامك يا أبا الوليد ؟

فقال :

— ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . ! ! والله ما هو

بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . . يامعشر قريش ، أطيعوني . .

وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن

لقوله الذي سمعت منه نبأ . . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه ، وإن

يظهر على العرب ، فمناكم ملسكم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ! !

ونظر الملأ بعضهم إلى بعض غرابة ودهشة ، وقالوا له :

— سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! !

وهز عتبة رأسه استخفافاً وهو يقول :

— هذا رأي . . فاصنعوا ما بداركم . . ! !

واشتد إيذاء المشركين لرسول الله والذين آمنوا معه ، وأخذت قريش تنزل النكال بالمسلمين كل النكال . . ولم يكن بد أن تفتتن حفنة التوحيد ، أو تهاجر من مكة إلى أقصى الآفاق . . وكانت الأخرى . . واستجاب المسلمون إلى أمر رسول الله إليهم بالهجرة إلى الحبشة . . حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . .

واستقر أبو حذيفة وزوجته سهلة بدار الهجرة ماشاء الله لها ، راضين قريين ، فقد أصبح الله ورسوله أحب إليهما من النفس والأهل ، والمال والوطن ، بل والدنيا بأسرها . . وبذلك الديار النائية ، من الله على أبي حذيفة بنعمة الولد ، ليبدو من أعماقه معنى جديد من معاني الوفاء للعقيدة ، والشوق لرسول الله ، فأسمى ولده محمدا . .

•••

وأسلم عمر بن الخطاب في مكة . . نخت حدة المشركين على المسلمين ، وخافت قريش أن تواصل كيدها ، حين رأت رسول الله يخرج بأصحابه لأول مرة ، ليتحدى سلطان الشرك في صفين عظيمين ، على رأس أحدهما عمر ، وعلى رأس الآخر حمزة ، وأخذوا يكبرون ويهللون في طريقهم إلى جوف الكعبة . .

وعاد أبو حذيفة وزوجه إلى مكة مع من عاد من الحبشة ، ولكن ما لبثت قريش أن أنزلت النكال بالمسلمين من جديد . . وكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة ، ولكن أبا حذيفة آثر البقاء مع رسول الله ، وليكن الثمن ما يكون . . إنه ليود أن يهدي أباه إلى

الإسلام .. فأبوه ما يزال في حرب مع ضميره ، حتى صار يعاني من آلام نفسه ما يعاني ، إذ الرجل يعلم من أعماقه أن محمدا - ﷺ - على الحق ، وأن أعداءه على الباطل ، ولكن هيهات هيهات أن يكسر عتبه هذا القيد الشديد من إرث الجاهلية ، فيخاطر بنفسه وآل بيته .. وإذن فليقف عتبه بمأى عن هذا الصراع الدامي بين قريش وبين محمد وأصحابه .. وليأمل أبو حذيفة في أبيه أن يسلم وجهه لله ، إن قريبا وإن بعيداً .. فإن أبي إلا أن يظل على كفره ، فلا أقل من أن يكون عامل تفريق لكلمة قريش في مستقبل الأيام ..

(٢)

وخرج رسول الله ﷺ إلى قبيلة ثقيف ، ليدعوها إلى الإيمان بالله وحده ، وخلع ما هي عليه من عبادة حجر لا يضر ولا ينفع ، ولا يعرف من عبده ممن لم يعبده .. فاستقبلته القبيلة بأقبح ما يصدر عنه قوم مردوا على الكفر والنفاق ، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم وعبيدهم فرجموه بالحجارة .. وانطلقوا من خلفه يسددون بها مرامهم من جسده الشريف ، حتى شجوا رأسه ، وأدموا قدمه .. وما رجعوا عنه حتى رأوه يرتقى في حفرة في الفلاة ، كأنه قد فارق الحياة .. فلما أفاق من إعيائه ، حمل نفسه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة قريشا منه ، ليستظل تحت حبله عنب من وهج الشمس ولهب الحصباء .. ورآه عتبة وشيبة دون أن يراهما ، فأخذتهما حاله كل مأخذ .. واشتد عليهما وخز الضمير أن يلجئه القوم إلى ذلك العنت الشديد ، وهو يدعوهم إلى رسالة التوحيد ، فأخذا يتناجيان في أمره . ويقلبان

صحائف صبره وصدقه .. ولكن أتى لها أن يخففا عنه ألمه ولو بكلمة
من طرف اللسان .. إنها يعلمان الثمن الذي سيدفعانه غالبا !!
ومن خلال اللحظات الرهيبة ، شق سيكون الحائط صوت
ملائكي ، أرهفت له آذان عتبة وشيبة ، لتسمع نغمة الخلود على
لسان سيد قریش ، وهو يناجي ربه بعد ما لقيه من عذاب
ثقيف ، فيقول :

- اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على
الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من
تكلمني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن
بك غضب على فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور
وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ،
من أن تنزل بي غضبك ؛ أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى
ولا حول ولا قوة إلا بك ..

وتحركت في عتبة وشيبة نوازع الفطرة ، وقد نزلت كلمات الرسول
الأعظم منهما منزل العاطفة الجارفة .. فلم يملك أن يحبس في قلبيهما
نزعة العطف ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له ، عداس ، وأعطياه
طبقا من جريد كان أمامهما ، وقالاه :

- خذ قطفًا من العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب إلى ذلك
الرجل ، فقل له يأكل منه ..

وانطلق عداس بالطبق والعنب إلى رسول الله ، ووضع بين
يديه ، ورجاه أن يأكل .. فتبسم ﷺ له ، وقال :

- بسم الله الرحمن الرحيم ..

ثم أكل منه ما شاء الله أن يأكل .. كل ذلك وعداس جاث على ركبتيه ، يتفرس في وجه الرسول ولا يثنى عن النظر إليه ، وكأنه في حلم جميل .. !!

وتبسم الرسول لعَداس مرة أخرى ، وقد أحس ﷺ أن الرجل يريد أن يقول شيئاً . . بينما انطاق لسان عداس يقول :

- والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد !!
وسأله الرسول :

- ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس . . وما دينك ؟
وأجاب عداس قائلاً :

- نصراني .. وأنا رجل من أهل نينوى .

وأطرق رسول الله برأسه وهو يقول :

- من قرية الرجل الصالح .. يونس بن متى ؟
وانطبعت على وجه عداس علامة الدهشة ، فقال :

- وما يدريك ما يونس بن متى ؟

وأجاب الرسول قائلاً :

- ذاك أخى .. كان نبياً وأنا نبي ..

وارتعدت فرائص عداس ، فاندفع قائماً .. وأكب على رسول

الله يقبل رأسه ويديه وقدميه ، والرسول يدفعه فلا يرجع .. حتى هدأت عاطفته ، وجلس ..

وشعر الرسول الأعظم بحرج عتبه وشيبه ، وقد رأى أحدهما

يميل على الآخر يهمس في أذنه ، وكانهما يتخوفان المصير .. فحمد الله على نعمائه ، وشكر لعداس ، وتأهب للمسير ..

وعاد عداس إلى سيديه ، وألقى الطبق أمامهما دون اكتراث على غير عادته .. ونظر شديدة لعتبة وهو يهز رأسه ، وقد مزج ابتسامته بعجبه ، فقال :

- أما غلامك فقد أفسده عليك أمر محمد !!

ورفع عتبة بصره إلى عداس وقال :

- مالك يا عداس .. مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

وضرب عداس الأرض بجريدة كانت في يده ، أيرسف آذان

الرجلين لما يقول .. ثم قال بصوت مرتفع لم يتعوداه منه من قبل :

- ياسيدي !! ما في الأرض شيء خير من هذا .. لقد أخبرني بأمر

لا يعلمه إلا نبي ..

ثم انصرف .. وتركهما في حيرتهما لصوت الضمير ، يهز

أوصالهما أمام حقيقة السماء مائلة قاهرة ، في شخص محمد بن عبد الله ..

وأذن الله لرسوله بالهجرة ، فأمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالفرار بدينهم من

أذى قريش إلى المدينة ، بعد أن هدى الله أهلها إلى نوره والإيمان

برسوله

وأسرع أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، ومعه زوجته سهلة بنت

سهيل ، لينالا شرف السبق إلى أمر رسول الله ، واستقرا بالمدينة

عدة أشهر حتى لحق الرسول بأصحابه .

ومضت سنة وبعض سنة ، اكتملت من خلالها للمسلمين أسباب
القوة والمنعة .. وأذن مؤذن الجهاد لرفع لواء الحق في بدر ، فكان
أبو حذيفة في مقدمة الصفوف ..

وأقبلت قريش بقضها وقضيضها ، وسدت الأفق بخيلائها ورجلها ..
ونظر الرسول الأعظم إلى جحافل الشرك فهاله عظمها وخطرها ..
ثم نظر إلى أصحابه في قلوبهم العزلاء ، فاشتد خوفه وإشفاقه ، ولم
يأبث أن نظر إلى السماء متضرعا إلى ربه فقال :

.. اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وغرورها ، تحادك وتكذب
رسولك .. اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة
من أهل الإيمان ، فلن تعبد بعد ذلك في الأرض .. اللهم
أحسنهم الغداة ..

ونزلت سكينه الله على رسوله وعلى المؤمنين ، وانطلق آسان
النبي ليعلم أصحابه باستجابة الله لدعائه .. وتلا عليهم قول بارئهم :
« سبهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة
أدهى وأمر .. »

وتركزت عيون المسلمين في عسكر أعدائهم ، يتعرفون من بعيد
على وجوه القوم .. فهذا ينظر إلى أبيه أو عمه أو أخيه ويتمنى
مخلصا أن يصدق الله ورسوله فيه ، فيقتله في ساحة الانتصار للحق ،
والفداء لرسالة التوحيد ..

ورأى الرسول عين أبي حذيفة تتركز في أبيه عتبة ، وقد ركب
جملا أحمر يشق به صفوف قريش .. ورأى صلوات الله وسلامه علام الحزن

تكتشف وجهه كلما أعاد النظر إليه مرة بعد أخرى .. إن أبا حذيفة
ليعلم في أبيه عذاب الضمير ، وإنه ليعلم أنه خرج مستكراها ، ولو كان
الامر بيده ما خرج .. وإن الرسول نفسه ليعلم هذه الحقيقة ، فأراد
أن يقررها على ملا أصحابه ، فقال :

- إن يكن في أحد من القوم خير ، فعند صاحب الجمل الأحمر ..
إن يضيعوه يرشدوا ..

وبعث قريش عمر بن وهب ليحزر لها عسكر المسلمين ، وليحصيهم
عدا لو استطاع .. فعاد إليها وقد هالته قوة الإيمان ، وبدأت له دعائم
العزة قوية راسخة ، وعلم أن النصر ان يفوت قوما خرجوا من أجل
الآخرة .. وأعلن لقومه هذه الحقيقة الماثلة ، فقال لهم :

- قد رأيت يامعشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب
تحمل الموت الناقع .. قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ،
والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم !! فإذا أصابوا
منكم عدادهم فما خير العيش بعد ذلك .. فروا رأيكم !!

وأسرع حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة ، ليوقفه على النبا العظيم ..
وليستعين به على حقن دماء قريش ، فقال :

- يا أبا الوليد .. إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك

إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر .. ؟

وبادره عتبة ، وقد ارتاع من قوله ، فقال :

- وما ذاك يا حكيم ؟

فقال حكيم :

- ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي الذي
أصابه أصحاب محمد ..

وأجابه عتبة على الفور :

- قد فعلت .. أنت على بذلك ؛ إنما هو حابى فعلى عقله وما أصيب
من ماله .. فأت ابن الحنظلية - أبا جهل بن هشام - فإني لا أخشى
أن يشجر أمر الناس غيره ..

ووقف عتبة خطيباً في ملاقومه فقال :

- يامعشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه
شيتاً .. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره
النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا
وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم
وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون ..

ومن خلال الموقف الرهيب ، كان حكيم يعرض على أبي جهل
رأى عتبة في الرجوع بالناس ، فثارت ثأرته ، واستشاط غضبه ،
وصاح في الناس ، وقال :

- انتفخ والله سحره حسين رأى محمداً وأصحابه .. كلا والله
لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .. وما بعتبة بن ربيعة ما قال ،
ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور .. وفيهم ابنه أبو
حذيفة ، فقد تخوفكم عليه !!

وطلب أبو جهل ، عامر بن الحضرمي من وسط الناس ، وصعد
به على مرتفع من الأرض ، وصرخ به وهو يشير إلى عتبة فقال :
.. هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت نأرك
بعينيك ، فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك !

وصاح عامر من فوره ، وهو يبكي أخاه عمرا ، ويقول :
.. واعمراه .. واعمراه ..

واضطرب أمر الناس ، وارتفعت أصواتهم بالحرب ، ودقت
طبولهم للزحف والقتال .. بينما تأسف عتبة للمصير الرهيب على يد
أبي جهل .. ولم يملك أن قال :

- سيعلم مصفر الإست من انتفخ والله سحره !!

(٣)

والتحم الفريقان المتباينان في بدر .. قريش في ألف مقاتل أو
يزيدون ، والمسلمون في ثمانمائة رجل لا يحملون إلا سلاح المسافر ..
السيوف في القرب .

وامتبسل جند محمد ﷺ ، فلم يعباوا بكثرة عدوهم ، ولا وفرة
سلاحه .. إنهم لا يقاتلون حول عرض أو منعم ، ولكنهم يقاتلون
في سبيل عتيبة أخذت بمجامع قلوبهم ، فصار الموت في سبيلها أحب
إليهم من الحياة .. فأكادوا يلتقون بمحافل الشرك ، وقد أغارت
عليهم من كل جانب ، حتى أزاحوهم على الفور .. وقتل حمزة بن
عبد المطلب رأس مقدمتهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي ..

ووقف القرشيون يتدبرون الأمر الخطير ، وقد راعهم قتل

الأسود ، وقت في عضدهم بأس المسلمين واستماتتهم خلف قائدهم
الأعظم . . . ولجأ رهوس الكفر بعضهم إلى بعض يقلبون صحائف
الرأى ، بغية القضاء على أهل التوحيد !!

ومن خلال الموقف الرهيب بدا لقريش تضعضع كيانها رغم
كثرتها . . . ولولا ما نفخه فيها شيطان أبي جهل من الخوف على
سلطانها بين العرب في قابل الأيام ، وما ينتظرها من الفناء على يد
محمد - ﷺ - وأصحابه لو سالمته في أول معركة لها معه . . . لعادت
على أعقابها إلى مكة لا تلوى على شيء !!

وبدا لقريش فوق ذلك أن شريفها عتبة بن ربيعة يود بجدع
الأنف لو استطاع أن يعود . . . إنه يكاد أن ينطق بينهم بأن محمدا
- ﷺ - وأصحابه على الحق ، وأن قومه على الباطل . . . وأن صوت
الضمير ما يزال يرن في أذنيه من تجارب السنين بأن الحق لا بد أن
ينتصر ، ولو قامت في وجهه قوى الدنيا ، وكان بعضها لبعض ظهيرا . .
وأراد عتبة - وقد لعلطه الغم من كل جانب - أن يضع حدا
لآلام نفسه . . . فهو لا يريد أن يموت في الميدان شأن غيره من
عداد قومه ، فلا يدري من هو قاتله . . . إنه حين رأى جند محمد ،
قد رأى منيته تقترب منه ، وتقترب لاحالة . . . فأراد أن يختار موته
أفضل عما ينتظرها غيره من جحافل قريش وأحاديثها على السواء . . .
وبرز ابن ربيعة من صفوف قريش بين أخيه شيبة وابنه الوليد ،
ونادى رسول الله من أقصى الميدان ، ودعا إلى المبارزة ، وقال :
- يا محمد ، أخرج لنا أكفأنا من قومنا !!

واستجاب الرسول لنداء عتبة ، فنظر إلى أصحابه وقال :
— قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا علي . .
وتقدم أبو حذيفة بن عتبة إلى رسول الله ، يطلب منه أن يجيزه
على مبارزة أبيه ، حتى لا يقتله غيره فربما أخذته بمقتل أبيه جاهلية ،
فيجد في نفسه على قاتله . . ولكن رسول الله لم يقبل منه ، فرده عن
عزمه ، وربت على كتفيه ، فعاد إلى الصف مطيعا . . وإن بدا بين
المسلمين مر بد الوجه ، ممتقع الأسارير ، قد أخذت منه العاطفة ،
وثارت في نفسه الانفعالات . . إنه لا يزال يرى من أبيه حلما
وفضلا وعقلا . . وإنه ما يزال يطمع أن يشوب أبوه إلى رشده . .
حتى في هذه اللحظات اليائسة . . فيؤمن بعد كفر ، ويهتدى
بعد ضلال . !

ونادى عتبة بن ربيعة من أقصى الميدان مرة أخرى ، علي
الثلاثة الذين أخرجهم رسول الله ليتعرف أسماءهم ، فأجابوه تباعا :
— عبيدة بن الحرث . . حمزة بن عبد المطلب . . علي بن أبي طالب
فما ملك عتبة أن قال :

— أكفاء كرام . . . !!

وتقدم الثلاثة نحو الثلاثة . . فانتصرت كلمة الإسلام على الفور ،
بوخر عتبة وشيبة والوليد صرعى ، علي مرأى من المعسكرين . . وعاد
أبطال النصر إلى صفوف المسلمين بين التكبير والتهليل .

والتقى الجمعان في الملحمة الطاحنة ، وأخذت سيوف الإسلام

تحصد رقاب الشرك حصدا . . وحي الوطيس . . ونزلت ملائكة الرحمن تضرب أعداء الله فوق الأعناق ، وتضرب منهم كل بنان . . فما استقامت قريش على قائمة ، وفر المشركون يطلبون النجاة ، والمسلمون من ورائهم لا يبقون منهم على أحد . . !!
ونسي أبو حذيفة ما كان من مصرع أبيه وأخيه وعمه على الشرك ، فكان كالأسد الهائج ينقض على جحافل الكفر انقضاض الموت ، ويفعل بأعداء الله الأفاعيل . . وهو من خلال ذلك يعرض نفسه على الشهادة في سبيل الله فلا يناها . . ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

ونادى رسول الله جنود الحق في ساحة النصر . . فقال :
— إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم ، قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البحتري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مستكرها . .
وحركت كلمات الرسول الأعظم الكوامن في نفس أبي حذيفة من جديد ، فانظبت أمام عينيه صفحات سريعة من حياة أبيه . . ورأى من خلالها كيف خرج أبوه مستكرها هو الآخر . . ولم يكن كان يود أبو حذيفة أن يعصم الله دمه في هذه الملحمة ، طمعا في إسلامه بعد انتصار كلمة الحق وانتهيار صرح الباطل . . ولم يملك أبو حذيفة نفسه وقد غلبته العاطفة ، وهدت من كيانه شقى المشاعر ، فصاح يقول لرسول الله :

— أنقتل آباءنا وأبنائنا وإخواننا ، وترك العباس . . . والله
لئن لقيته لأجمنه بالسيف . . .

وتبسم الرسول الأعظم وقد ملكه الإشفاق على أبي حذيفة ،
ونظر إلى عمر بن الخطاب من خلفه ، وقال :

— يا أبا حفص . . . أياضرب وجه عم رسول الله بالسيف . . .

وأخذت عمر هزة الغضب لقول أبي حذيفة ، ورفع سيفه وقال :

— يا رسول الله . . . دعني فلاضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقدنافق . . .

وملك الإشفاق رسول الله على أبي حذيفة مرة أخرى . . . فهو

يعلم أن أبا حذيفة مؤمن صادق الإيمان ، وما دفعه إلى قوله غير

نزعة العاطفة التي لا تتجرد منها نفس في لحظات الخيرة ، حين

يضطرب من داخلها ميزان الحكم على الأمور . . . وأراد صلى الله عليه وسلم أن

يبدي لعمر عذر أبي حذيفة وهو ينهاه عن قتله حين جهر بعصيانه ،

وقال صلى الله عليه وسلم :

— يا عمر . . . لقد رأى أبو حذيفة مصرع أبيه بعينه . . .

وانعكست على قلب أبي حذيفة أضواء الحقيقة ، فبدأ له من

خلالها ظلم نفسه لنفسه حين عارض رسول الله ، واشتد على قلبه

وخز الضمير ، وهو ينظر إلى ماضيه الطويل الحافل بالصدق والصبر

والفداء ، يتحطم على محنة من محن التجارب والابتلاء . . . واستبد به

الضيق أن تخذله نفسه في موطن الرضى والتسليم لأمر الله على لسانه

رسوله . . حيث انتصرت نفوس أخرى على نزعة الهوى ونزع
الشیطان . . فهذا يقتل أباه ، وهذا يقتل أخاه ، وذلك يقتل عمه أو
خاله أو رجلا من عشيرته . . وهو حين يفترى بذلك دعوة الله
وبشتری رضاء رسول الله ، يكون قرير العين ، راضی القلب ،
مرتاح الفؤاد . . حتى إنه لا يقف به الرضى عن أمره إلا حين تذهب
نفسه هي الأخرى في ميدان الانتصار لكلمة الله وإعلاء لوائه
بين العالمين . .

وأطبقت الدنيا بضيقها على صدر أبي حذيفة ، فصيرته كالحطام ،
لا يكاد يستقيم جسده على قدميه أمام خطيبته مع رسول الله . .
وأخذ يلوم نفسه ويعنفها ، ويذكر ما قاله النبي ، فيستضيء له قلبه ،
ويعلم أن الرسول لا ينطق عن هوى ولا يصدر عن غرض ، إن هو
إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى . . وتبدو له حقيقة العباس بن
عبد المطلب ، الذي نهى الرسول عن قتله ، فيعظم أمامه الفارق بينه
وبين أبيه عتبة ، فالعباس مسلم في أعماقه من قديم ، حتى إنه ظل يمد
رسول الله بأخبار قريش منذ هاجر إلى المدينة ، ليأخذ ﷺ لكل
أمر عدته ، وهو حين خرج مع قريش في بدر ، لم يخرج كما خرج
عتبة ، وإنما خرج ليخذل عن رسول الله قوى الشرك ما استطاع ،
واقدا استطاع أن يخذل عنه الكثير . .

وتدور بأبي حذيفة رأسه ، فيسندها على ركبتيه ، وقد تشبث
جسده بالأرض من فرط الإعياء ، وينظر إليه الرسول الأعظم

فيزداد به إشفاقا على إشفاق ، ويزداد أبو حذيفة بإشفاق الرسول
حزنا على نفسه ، وندما على ما فرط من لسانه .. ولا يرى من
تكفير لذنبه إلا أن تستأنف الحرب مع قريش أوزارها ، فيموت
في الميدان شهيدا .. ولكن هيهات هيهات ، فلقد تم النصر ، وقتل
من رموس الكفر من قتل ، وفر من استطاع الفرار .. وبذلك
ذهب الأمل في الشهادة ، ولو إلى حين ..

وأمر رسول الله ﷺ ببناء قلب يدفن فيه قتلى المشركين ،
وأخذ المسلمون يجرون إليه رموس الكفر ، واحدا إثر واحد ..
ومن خلال المنظر الرهيب ، ألقى النبي الأعظم نظرة على أبي
حذيفة ، فإذا الكتابة بادية على وجهه ، وقد رأى المسلمين يجرون أباه
إلى القلب .. فتقدم منه ﷺ وقال :

— يا أبا حذيفة ، لعلك دخلك من شأن أبيك شيء ؟

وأجاب أبو حذيفة جواب المؤمن الصادق ، ليطالع رسول الله
على ما يختلج جوانب قلبه من الرضى بقضاء الله ، فقال :

— لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ..

ولكنني كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن
يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه
من الكفر بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنتني ذلك ..

وتبسم رسول الله لأبي حذيفة ، وأظهر له الرضى والحب ، وشمته

بالعطف والحنان ، ومسح على صدره ، ودعاه بالخير ..
وعلى رأس القلبيب ، وقد سوى المسلمون التراب على من فيه ..
وقف ﷺ يناجي صرعى الكافرين ، فقال :

- يا أهل القلبيب .. يا عتبة بن ربيعة .. يا شيبه بن ربيعة .. يا أبا
جهل بن هشام .. بئس عشيرة النبي كنتم لنيكم ، كذبتوني وصدقني
الناس ، وقاتلتوني ونصرني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ..
هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا .. فإني وجدت ما وعدني ربي حقا ..؟
ودهش المسلمون لخطاب رسول الله إلى صرعى المشركين . فقالوا :
- يا رسول الله .. أتنادى قوما قد جفوا ؟

فأجابهم الرسول الأعظم على الفور فقال :
- ما أنتم أسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني !!

• • •

ومضت بدر .. وقر المسلمون بنصر الله .. ودارت عجلة الزمان
بسرعة على صفحة الشهور والسنين ، وأبو حذيفة لا يجد من ضيق
نفسه مخرجا .. إن الرسول ليواسيه فلا يخفف ذلك من ألمه ، فقد
آلى على نفسه أن يدفع ثمن الخطيئة ببيع الله واستشهادا في سبيله ،
وكلها لا طمعه المسلمون وعظموا مقامه ، كلما أفاض لهم من شكوك
نفسه ، وآلام فؤاده .. وما كان يملك إلا أن يقول لهم في كل موطن :
- ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها
خائفا ، إلا أن تكفرها عنى الشهادة !!

وتستمر الحرب بين رسول الله وبين أعدائه ، وينهض المسلمون في كل غزوة خلف النبي الأعظم .. ويسرع أبو حذيفة إلى المقدمة عند كل لقاء ، لعله أن ينال الشهادة ، ولكنه لا يظفر بها .. قاتل في أحد وقاتل في الخندق ، وقاتل في حنين والطائف وتبوك ، وحضر جميع المشاهد مع رسول الله ، وهو لاهم له من الخروج إلا أن يصدق الله في قتال أعدائه حتى النصر أو الموت .. ولكنه عاد منها جميعها دون يغيته ، ليحيا ، لا كما يحيا غيره في ببحوحة الرضا بنصر الله ، ولكن ليستأنف حياة الضيق والسأم ، والخوف والندامة .

وصعد رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهو راض عن أبي حذيفة كل الرضى .. ولكن ذلك لم يقعد بأبي حذيفة عن طلب الشهادة ، ليطمئن بها قلبه على مصيره حين يغادر الحياة الفانية ، وليكون في منازل الشهداء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..

ودعا أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ المسلمين إلى قتال المرتدين ، فارتفعت ألوية الجهاد فوق أحد عشر جيشا .. وفي أخطر وجهة سار إليها أنصار الله ، كان أبو حذيفة في مقدمة الصفوف من جيش خالد بن الوليد إلى اليمامة ، لحرب بني حنيفة ، والقضاء على فتنة مسيلمة الكذاب ..

وكانت محنة ، دارت فيها الدائرة على المسلمين عند أول لقاء ، وكثير عدد من استشهد .. وصار أبو حذيفة يطلب الشهادة لنفسه

خلال بلائه في مقدمة الصفوف فلا يناهها . وكادت البقية المؤمنة أن تتفرق في البوادي منهزمة راجعة ، لولا ما كان من أمر خالد حين مرق بفرسه وسيفه وسط جيوش الكفر الجبارة ، وهو يذكر المهاجرين والأنصار بعهودهم ، ويصبح فيهم بأعلى صوته ويقول :

- واحمداه .. واحمداه ..

واجتمعت الكلمة ، ورخصت النفوس ، وتكتلت الصفوف ، وحمل زيد بن الخطاب راية المهاجرين .. ودارت رحى الحرب شديدة عاتية ، وثبت المسلمون لبطش عدوهم .. واستشهد حامل الراية زيد .. فأسرع إليها أبو حذيفة ليحميها من بعده ، وهو يصيح في المسلمين من خلفه ، ويقول :

- يا أهل القرآن .. زينوا القرآن بالفعال ..

واستبسل أنصار الله ، فانقلب ميزان المعركة ، وصارت الريح للمسلمين .. وانهمزم أعداء الله .. وانطلق معاوية بن أبي سفيان من خلف خاله أبي حذيفة إلى راس الفتنة السوداء مسيلمة ، فذبحه بسيفه .. وبذلك تمت كلمة الله للذين آمنوا ..

ومن خلال النصر الحاسم ، سطر أبو حذيفة في سجل الخلود صفحة التوبة الكبرى .. ففاز بالشهادة ..

وفي تلك الرقدة الأبدية ، نظر المسلمون إلى وجه أبي حذيفة ، ليشهدوا تلك البسمة السمحاء على مجاه .. إنها بسمة الرضى بمقتدر ..

صدق عند ملك مقتدر ..